الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي للمصطفى ﷺ
دراسة في ضوء المنهج الأسلوبي

Rhetorical argumentation in the divine admonition to the Prophet Muhammad, peace and blessings be upon him, a study in light of the stylistic approach

د. عمر بن نوح المطيري

أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية، كلية التربية جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز

ماجستير جامعة الملك سعود في الأدب والنقد

دكتوراه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الأدب والنقد

o.almotiry@psau.edu.sa

https://doi.org/10.65728/1625-000-022-008

الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي للمصطفى ﷺ: دراسة في ضوء المنهج الأسلوبي

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث العتاب الإلهي للنبي محمد ﷺ في القرآن الكريم، من منظور بلاغي حِجاجي، كاشفًا عن أبعاده التقويمية والأسلوبية، بوصفه نمطًا من التوجيه الإلهي الذي يزاوج بين البيان والحكمة، وبين التعليم والرحمة، وانطلق البحث من فرضية مفادها أن هذا العتاب لا يُفهم إلا من خلال تحليل مستوياته الأسلوبية والحِجاجية، باعتباره خطابًا تقويميًّا يعيد ترتيب سلَّم القيم ويؤسس للقيادة النبوية بوصفها قدوة تشريعية وتربوية.

اعتمد الباحث المنهج الأسلوبي، ودمج بين البلاغة العربية والتداولية الحِجاجية عبر مبحثين، تناول **الأول: البنية البلاغية في العتاب الإلهي، وتناول أنماط الخطاب وأدواته،** فيما تناول **المبحث الثاني أنماط الحِجاج البلاغي في العتاب الإلهي،** وفيه قام بتحليل تسع آيات قرآنية تمثِّل أنماطًا متنوِّعة من العتاب، موزَّعة على ثلاثة محاور تحليلية: الحجاج البلاغي في العتاب الرفيق اللطيف، والحجاج البلاغي في العتاب التقويمي (التوجيهي)، والحجاج البلاغي في العتاب البياني المباشر.

ومن أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج:

- كشفت القراءة التحليلية الأسلوبية لآيات العتاب الإلهي الموجَّه إلى النبي ﷺ عن نسق حِجاجي بالغ الدقة، يمثِّل واحدة من أرقى صور التواصل التقويمي (الإرشادي) في الخطاب القرآني، فجاء هذا العتاب موزعًا ضمن ثلاث درجات متدرجة في الخطاب تراوحت بين الرفق اللغوي والبيان الصريح، بحسب طبيعة الموقف، وخصوصية السياق، ومقتضيات المقام النبوي.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، العتاب، القرآن، الأسلوبية.

Abstract

This research examines the phenomenon of divine admonition to the Prophet Muhammad (peace and blessings be upon him) in the Holy Qur'an, from a rhetorical and argumentative perspective, revealing its educational and stylistic dimensions, as a sophisticated form of divine guidance that combines eloquence and wisdom, and firmness and mercy. The research is based on the hypothesis that this admonition can only be understood through analyzing its stylistic and argumentative levels, as it is an evaluative discourse that rearranges the scale of values and establishes prophetic leadership as a legislative and educational model.

The research adopted the modern stylistic approach, combining Arabic rhetoric and argumentative discourse, through analying nine Qur'anic verses that represent diverse forms of admonition , divided into three analytical topics: gentle admonition , educational admonition , and direct rhetorical admonition . The analysis revealed the effectiveness of the argumentative linguistic structure in guiding behavior through rhetorical tools such as negation, contrast, repetition, and anastrophe. This highlights the depth of divine guidance to the Prophet, peace and blessings be upon him, on the one hand, and the establishment of an educational discourse for the nation, on the other hand.

Keywords: Argumentation- Admonition - Qur'an - Stylistics

مقدمة

يُعدُّ العتاب الإلهي في الخطاب القرآني ظاهرة بلاغية تربوية ذات طابع خاص، تندرج ضمن أنماط التواصل الرباني الرفيع الذي خُصَّ به النبي محمد ﷺ، ويمتاز عن غيره من وجوه البيان القرآني بسمات أسلوبية، ووظائف حجاجية، وأبعاد دلالية غاية في الدقة واللطف.

أسباب اختيار الموضوع:

1 - لأن العتاب يمثل بعدًا بلاغيًّا حجاجيًّا فريدًا في الخطاب القرآني.
2 - لأن هذا اللون من الخطاب يكشف عن جمالية البيان القرآني في تقويم السلوك، وتصحيح المواقف.

وتتبلور أهمية البحث في الآتي:

1 - تسليط الضوء على الوظيفة الإقناعية للعتاب في النص القرآني وكيفية بنائه للحجة من خلال البيان والرفق، وتقديم نموذج بلاغي تطبيقي يمكن الاستفادة منه في تحليل أساليب القرآن الأخرى كالتوبيخ أو الموعظة أو الحوار.
2 - تجديد المنهج البلاغي في دراسة القرآن عبر ربط البلاغة بالحجاج والخطاب التداولي والأسلوبي.
3 - خدمة الخطاب الإسلامي المعاصر من خلال استلهام الأسلوب القرآني في العتاب بوصفه وسيلة للتقويم والإصلاح لا للتقريع والجدل.

ويأتي هذا الموضوع استجابة لحاجة الدرس البلاغي المعاصر إلى تحليل هذا النمط من الخطاب التقويمي العالي.

إشكالية البحث:

تنطلق الدراسة من إشكالية مركزية مفادها: كيف جسَّد الخطاب القرآني العتاب الإلهي للنبي ﷺ من خلال بناء بلاغي حجاجي يوازن بين التقويم والرحمة؟

أسئلة البحث:

1 - ما الأنماط البلاغية التي يتجلَّى من خلالها العتاب الإلهي؟
2 - ما القيم المعرفية والجمالية التي ينهض بها هذا العتاب في بناء الخطاب القرآني؟
3 - كيف يسهم العتاب الإلهي في صياغة نموذجٍ بلاغيٍّ يقوم على الرفق والتقويم أكثر من التأنيب والعقاب؟

أهداف البحث:

1 - الكشف عن الأبعاد البلاغية في العتاب الإلهي، وبيان كيف يتحول إلى حِجاجٍ تقويميٍّ موجَّهٍ للمخاطَب.
2 - تصنيف أنماط العتاب في القرآن الكريم وفق منهجٍ بلاغي يراعي مقاصد الخطاب الإلهي ووظائفه.
3 - إبراز العلاقة بين الأسلوب الحجاجي والغاية التقويمية في النص القرآني.
4 - تحديد السمات الأسلوبية التي تمنح العتاب الإلهي قوَّته الإقناعية وفاعليته في التوجيه.

الدراسات السابقة:

تناولت بعض الدراسات العتاب الإلهي في القرآن الكريم من زوايا متنوعة، أهم هذه الدراسات:

- حصنة بنت حمد الحواس (٢٠١٣)، عتاب الله لنبيه وآثاره التربوية في ضوء آيات القرآن الكريم: ركَّزت على الآثار التربوية للعتاب، دون التحليل البلاغي أو الحِجاجي للنص.
- عويد المطرفي (٢٠٠٥)، آيات عتاب المصطفى في ضوء العصمة والاجتهاد: حيث تناول العتاب من منظور عقدي وفقهي، مع التركيز على العصمة والاجتهاد، متجاهلًا الجانب البلاغي الحِجاجي.
- وتميز هذا البحث بأنه اعتمد المنهج البلاغي الحِجاجي، حيث حلَّل البنية اللغوية والبيانية للعتاب الإلهي، وصنَّف أنماطه وفق تصنيف بلاغي واضح (رفيق – تقويمي – بياني مباشر)، مما يوفر قراءة منهجية متكاملة للنصوص القرآنية.
- اعتمد البحث **المنهج الأسلوبي** بوصفه إطارًا رئيسًا للتحليل، مع الاستفادة من بعض آليات المنهج التداولي (الحجاج) والمأثور التفسيري.

حدود البحث:

تنقسم حدود البحث إلى موضوعية وزمانية، تنحصر الحدود الموضوعية في خطاب العتاب الإلهي الموجَّه إلى النبي محمد ﷺ، حيث اعتمد البحث نصًّا مكوّنًا من تسع آيات موزَّعة على ثلاث درجات أسلوبية بحسب طبيعة الخطاب: العتاب الرقيق اللطيف، والعتاب التقويمي، والعتاب البياني المباشر، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، وقوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، اختيرت بناءً على معيارَي التصريح أو التلميح بالعتاب، وملاءمتها لأهداف التحليل البلاغي الحجاجي.

وحدود زمانية تقتصر على العصر النبوي، ويسعى البحث من خلال هذا الطرح إلى الإسهام في تطوير الدراسات البلاغية القرآنية، وتقديم قراءة تأويلية جديدة تضيء الأبعاد الأسلوبية والتقويمية في خطاب العتاب الإلهي.

المبحث الأول

البنية البلاغية في العتاب الإلهي، وتناول أنماط الخطاب وأدواته

المحور الأول: منطلقات الحِجاج عند البلاغيين واللغويين القدماء:

الحجاج في اللغة من «حجج وحجاج، وحاجه محاجه وحجاجًا: نازعه الحجة وحجه بحجة حجا: غلبه على حجته، وفي الحديث (فحج آدم موسى) أي غلبه بالحجة واحتج بالشيء: اتخذه حجه، والحجة والدليل والبرهان، يقال: حاججته، فأنا محاج وحجيج أي غلبه بالحجة»(١)، ويقال: «حاججت فلانًا فحججته أي: غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة والجمع حجج، والمصدر الحجاج»(٢)، وهو في المعنى الاصطلاحي «يدل على صنف مخصوص من العلاقات المودعة في الخطاب، والمدرجة في اللسان ضمن المحتويات الدلالية، والخاصية الأساسية للعلاقات الحجاجية، أن تكون درجيَّة أو قابلة للقياس بالدَّرجات، أي أن تكون واصلة بين سلالم»(٣)، في حين يؤكد (طه عبد الرحمن) على «أن المنطوق به الذي يستحق أن يكون خطابًا هو الذي يقوم بتمام المقتضيات الواجبة في حق ما يسمى بالحجاج، إذ حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها، فلا خطاب بغير حجاج، ولا مخاطِب من غير أن تكون له وظيفة المدعي، ولا مخاطَب من أن تكون له وظيفة المعترض»(٤)، وعند استجلاء الملامح الأولى للفكر الحِجاجي عند البلاغيين الأوائل من خلال ما قدموه من مفاهيم تدور في فلك التأثير والخطاب المقامي، نجد أن الجاحظ عرَّف البيان بأنه «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم و الإفهام؛

(١) ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، بيروت، دار صادر د.ت، ص٢٢٨، ج٢، مادة حجج.
(٢) أبو الحسن أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٩م، ص٣٠، ج٢، مادة حجج.
(٣) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠٠٨م، ص٢١.
(٤) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م، ص٢١.

فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع».(١)

وتُعد نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني محطة بالغة الأهمية في تشييد المعنى داخل التركيب، بما يتجاوز حدود الدلالة المعجمية إلى شبكة العلاقات النصية، فقد قرر في مقدمة كتابه أن النظم ليس سوى أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على اختيار الألفاظ، ثم ترتيبها على نسق مخصوص(٢)، وتضافر عند البلاغيين أيضًا مفهوم مراعاة مقتضى الحال بوصفه مفتاحًا لنجاح الخطاب، ومقياسًا لبلاغته، ويُظهر السكاكي هذا المعنى في مفتاح العلوم حين يجعل البلاغة «مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحته»(٣)، وهذا المقتضى تسميه التداولية الحديثة السياق التواصلي أو المقام الحواري، الذي يحكم اختيار البنى والأساليب بحسب الغرض والمخاطَب.

وإذا جمعنا هذه القراءات المتناثرة عند البلاغيين، وجدنا أن التفكير الحِجاجي حاضر عندهم على مستوى الجوهر، وإن غاب كمصطلح مستقل، فكان يُعنَون بالوظيفة، والغايات، وتوجيه الخطاب، وترتيب الحُجج، والملاءمة بين المقام والمقال.

تطور مفهوم الحِجاج في البلاغة الحديثة والتداوليات:

عرف الحِجاج في البلاغة الحديثة تحولات جوهرية، جعلت منه مفهومًا مركزيًّا في دراسة الخطاب، بعد أن كان في البلاغة مقصورًا على فنون الخطابة أو بعض صور الجدل، وكان أبرز من أحدث هذا التحول المفهومي منظِّرو البلاغة الجديدة، وفي مقدمتهم شاييم بيرلمان، الذي رأى أن الخطاب الحِجاجي لا يستهدف الإلزام المنطقي الصارم، وإنما يسعى إلى إحداث درجة من القبول في ذهن المتلقي، فالحجاج «مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب».(٤)

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣م، ص٥٦.
(٢) ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، ط٣، جدة، دار المدني، ١٩٩٣، ص٤٦ وما بعدها.
(٣) السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: حمدي محمدي قابيل، قدم له وراجعه: مجدي فتحي السيد، مصر، المكتبة التوفيقية، ج٣، ص٢٥٥.
(٤) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م، ص١٧.

وفي هذا السياق، ارتبط الحِجاج ارتباطًا عضويًّا بالتداولية، بوصفها مجالًا يبحث في العلاقة بين القول والسياق، وبين البنية النحوية والوظيفة المقامية، وبذلك «تهدف نظرية الحجاج اللغوي أو اللساني التي وضعها كل من (أنسكومبر anscombre)(وأزوالد ديكرو o.ducro) إلى دراسة الجوانب الحجاجية في اللغة ووصفها انطلاقًا من فرضية محورية ألا وهي أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، أي تحميل اللغة في طياتها بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية تتجلى في بنية الأقوال ذاتها، صوتيًّا وصرفيًّا وتركيبيًّا ودلاليًّا».(١)

وبذلك نخلص إلى «أن موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم».(٢)

وقد استثمرت الأسلوبية الحديثة هذا المعطى الحِجاجي، فعدَّت الأسلوب بنية دلالية لا شكلية، ترتبط بمقام الخطاب وبنيته الحجاجية، كما يرى محمد مفتاح، الذي يذهب إلى أن كل انزياح في اللغة إنما هو حِجاج مقنَّع، يستبطن رغبة في إحداث الأثر وتوجيه المتلقي(٣)، وبهذا أصبح الاشتغال الأسلوبي يصف الخصائص التعبيرية، ويُفكِّك الوظيفة الإقناعية للأسلوب بوصفه مظهرًا حجاجيًّا.

الحِجاج بوصفه استراتيجية تواصلية مقصودة:

لقد أكدت الدراسات التداولية الحديثة أن كل خطاب -في جوهره- يسعى إلى التأثير، حتى ولو بدا تقريرًا موضوعيًّا؛ لأن مجرد اختيار الألفاظ وتنظيم الجمل وتحديد المقامات يشي بقصدية توجيهية، وفي هذا السياق، يرى محمد العمري أن الحِجاج فعل

(١) جميل حمداوي، نظريات الحجاج، شبكة الألوكة، ص٣٢-٣٣.
(٢) عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، منتدى نور الأزبكية، تونس، مسكيلياني للنشر، ٢٠٠١م، ص١٣.
(٣) ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص٢١٢.

لغوي متعمد، يصدر عن متكلم له نية في التأثير، وله موقف مسبق، ويملك أدوات للتوجيه(١)، فالمتكلم في المقام الحِجاجي يبني قوله بطريقة تجعل من المستمع شريكًا في التفكير، ومستهدفًا بالتأثير.

وهذا ما يجعل من الحِجاج فعلًا تواصليًّا قائمًا على التخطيط والإقناع والتوجيه، وأشار محمد مفتاح إلى أن الحِجاج ممارسة ذكية، تستثمر ما في اللغة من طاقات لتوليد المعنى وتوجيهه(٢)، ومن هنا جاء تماهي الحِجاج مع الأسلوب؛ لأن كليهما لا يُفهمان إلا في ضوء السياق والمقصد والنية التوجيهية.

(١) ينظر: محمد العمري، الحِجاج مفهومه ومجالاته، إربد، دار عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م، ص١٤.
(٢) ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص، ط٢، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥، ص٢٤١.

آليات وتقنيات الحجاج:

المقدمات العقلية والوجدانية:

تُشكِّل المقدمات العقلية والوجدانية البنية التحتية لكل خطاب حِجاجي فاعل؛ لأنها تُبنى في ضوء وعي المتكلم بطبيعة المتلقي، ومدى استعداده الذهني والنفسي لتقبُّل الرسالة، وتُعد هذه المقدمات بمثابة نقاط انطلاق استراتيجية تُهيئ المتلقي للقبول أو إعادة النظر، بحسب طبيعة المقام وهدف الخطاب، فالمقدمات العقلية تخاطب الذهن بالبراهين والمقارنات والتسليمات المنطقية، بينما تخاطب المقدمات الوجدانية العاطفة، وتستثير الانفعال أو التعاطف أو الخوف أو الحنان، دون أن تكون مجرد انفعالات خام، بل وسائط بلاغية وظيفتها تمهيدية وتأثيرية في آن واحد، فالحِجاج العربي التقليدي كان يميل إلى التكامل بين المقنع العقلي والمحرك الشعوري، عبر تنويع أساليب القول، بما يضمن تعدد المداخل إلى ذهن المتلقي.(١)

وبذلك يتبيَّن أن المقدمات العقلية والوجدانية في الخطاب الحِجاجي من صميم استراتيجية التأثير، وفي خطاب العتاب القرآني للمصطفى ﷺ، جاءت هذه المقدمات موزونة على المقام، ومشغولة بمنطق الرحمة والتربية، مما يجعلها أداة حجاجية تقويمية، تؤدي رسالتها بلطف وأدب، دون أن تفقد الحُجة قوتها، أو تتخلى عن مقصدها الإصلاحي.

الأدوات اللغوية والبنائية في الخطاب الحِجاجي:

تتجلى الفاعلية الحِجاجية في الخطاب من خلال ما يُعرف بالأدوات اللغوية والبنائية، وهي الوسائل التي تُستدعى داخل النص لا لتأثيثه شكليًّا، وإنما لإدارة عمليَّة الإقناع وقيادة المتلقي نحو موقف محدد، ومن هذه الأدوات: الاستفهام، والنفي، والقسم، والتوكيد،والشرط،

(١) ينظر: محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، طرابلس، منشورات المركز العربي للدراسات، ٢٠٠٤م، ص١٥.

وغيرها، والتي يُعاد توظيفها حِجاجيًّا وأسلوبيًّا بحسب مقام القول.(١)

فالاستفهام من أكثر الأدوات البلاغية توظيفًا في الحِجاج، ليس لطلب الفهم فحسب، بل لتثبيت الحُجَّة، أو تفنيد قول، أو تقريع ضمني، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القرآن الكريم: البقرة: ٤٤]، وهو استفهام تقريري يضع المتلقي أمام مسؤولية فكرية، تُلزم عقله بالمراجعة، كما تُستخدم الصيغة الاستفهامية أحيانًا لإثارة التوتر الشعوري، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: مكررة]، حيث يتكرر الاستفهام في إطارٍ من التذكير والامتنان، وهو تكرار مقصود يُراكم الحُجَّة في النفس، ويحوّل التلقّي إلى موقف وجداني وعقلي معًا.(٢)

أما النفي، فهو من أبرز الأدوات التي تُستثمر في إبطال دعوى أو تعديل مسار مفهومي، والنفي في الحِجاج يُعنى ببناء سياق بديل يُعيد ترتيب الفهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، حيث يُستخدم النفي لإبراز علة العذاب وأساس نفيه، مما يجعل النفي هنا أداة تربوية حِجاجية متقدمة.

ويُعَدّ القسم أداة حِجاجية قوية، خصوصًا حين يُراد تعزيز مصداقية الدعوى المطروحة، فحين يُقسم الحقُّ سبحانه بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ثم يُتبع القسم بحقائق تربوية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فإن القسم فيه إدخالٌ للمخاطب في أجواء تأملية تُمهّد لتقبُّل الحُجَّة، وكل أداة لغوية –من النفي إلى القسم– تسلك سلوكًا بلاغيًّا يوجّه المعنى ويقوّي سلطته التأثيرية.(٣)

وإذا نظرنا إلى هذا الاستخدام من منظور المنهج الأسلوبي، فإننا نلاحظ أن هذه

(١) ينظر: عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٤، ص٤٧٧.
(٢) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، لبنان، دار الفارابي، ٢٠٠١م، ص٨٩.
(٣) ينظر: محمد خطابي، لسانيات النص استراتيجية التناص مدخل إلى لسانيات النص، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ١٩٩١م، ص١٦-١٧.

الأدوات تُكتسب طاقتها البلاغية من تموضعها داخل السياق، ومن انسجامها مع نبرة الخطاب ومقامه، فالأسلوب استراتيجية القول، كما عبَّر عن ذلك محمد العمري في موضع آخر بأن الأسلوب هو الوجه التداولي للبلاغة، والحِجاج هو منطق هذه البلاغة.(١)

وبذلك فإن دراسة الأدوات اللغوية في ضوء هذا التكامل تكشف أن الحِجاج في القرآن جاء بناءً بلاغيًّا أسلوبيًّا متماسكًا يُنتج أثرًا نفسيًّا ومعرفيًّا معًا.

العلاقة بين الحِجاج وبلاغة الإقناع:

تمثِّل العلاقة بين الحِجاج وبلاغة الإقناع امتدادًا طبيعيًّا لتكامل البعدين التداولي والأسلوبي في الخطاب، فالحِجاج من جهة هو تنظيم للحجج وتوجيه لها ضمن سياقات تواصلية بهدف تحقيق تأثير محدد، وبلاغة الإقناع من جهة أخرى هي تجلٍ لهذا التنظيم حين يتحقق الأثر في نفس المتلقي، وفي هذا الصدد يقول صلاح فضل: «كانت البلاغة فنًّا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، وتحددت حينئذ بأنها فن الإقناع الذي يتكون من مجموعة من القواعد والمواصفات، يضمن تطبيقها إقناع السامع بالقول أولا، أو إقناع القارئ بالعمل الأدبي بعد ذلك، حتى ولو كان هذا الذي يراد به زيفا وبهتانا».(٢)

فالمقاربة الأسلوبية للحِجاج تنظر في مقاصدها الإقناعية، وفي الطاقة الدلالية التي يُنتجها انتظامها داخل البنية الكلية للخطاب.

وبهذا تتجلَّى العلاقة بين الحِجاج وبلاغة الإقناع في ثلاثة أوجه متكاملة:

1 - الحِجاج يُقدِّم المادة (الفكرة والدعوى والدليل).

2 - البلاغة تُعالج الصياغة (الأسلوب والتنغيم والنبرة).

3 - الإقناع يتحقق حين تتفاعل الحجَّة مع حسِّ المتلقي، ضمن مقامٍ يحترم عقله ومشاعره.

(١) ينظر: محمد العمري، الحجاج مفهومه ومجالاته، ص١٥.
(٢) صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، مصر، دار الشروق، ١٩٩٨م، ص١٦٩.

والقرآن الكريم -في مواضع العتاب والتوجيه والتربية- يُقدِّم نموذجًا متفرِّدًا في هذا التكامل، إذ يُوجِّه دون تجريح، ويُصحِّح دون تعنيف، ويُقنع دون أن يُكره، وهذا ما يجعل الخطاب الإلهي إلى المصطفى ﷺ في غاية الرقي من جهة حِجاجيته، وغاية الفعالية من جهة إقناعه.

أنماط الحِجاج القرآني

إنَّ الحِجاج في القرآن لا يُقصد به الجدل العقيم، ولا الإقناع القسري، وإنما هو نوع من التربية البلاغية القائمة على التعليل، والتقويم، والتذكير، وهي سمات تجعل من الخطاب القرآني مدرسة متكاملة في فن التأثير اللغوي والسلوكي، وقد حرصت النصوص القرآنية في خطابها مع البشر على بناء الحجَّة بأسلوب متوازن يجمع بين البيان والإقناع، وبين العقل والوجدان، وبين السلطة التوجيهية وحضور الرحمة.(١)

وتتجلَّى هذه الفاعلية الحِجاجية في أنماط متعددة، تتنوَّع بحسب المقام والسياق وغايات الخطاب، ومن أبرزها: الحِجاج العقلي، والحِجاج الأخلاقي، والحِجاج الخطابي، وهي أنماط لا تتقاطع بقدر ما تتداخل وتتساند في إنتاج أثر مزدوج معرفي وقيمي.

يقوم الحِجاج القرآني على بنية مركَّبة تجمع بين العقل والخُلُق والبيان، وهو ما عبَّر عنه بعض الدارسين بالتداخل الحيّ بين المنطق والقيم والأسلوب، حيث تُعنى ببنائها ضمن رؤية كلية متجاوزة لحدود الجدل الصوري أو القياس المنطقي المحض، ولهذا تُصنَّف أنماط الحِجاج في الخطاب القرآني إلى ثلاثة أنماط رئيسة: الحِجاج العقلي، والحِجاج الأخلاقي، والحِجاج الخطابي، وكل نمط منها يُسهم في خدمة مقصد النص الإقناعي بأسلوب مخصوص.(٢)

(١) محمود كاظم الغزي، أنماط البنى الحجاجية في سور الحواميم، مجلة آداب المستنصرية، العدد ٨٣، ٢٠١٨م، ص٩.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص١١.

فالحِجاج العقلي ينهض على البرهنة وإثارة التفكير واستدعاء البديهيات، ويعتمد على مخاطبة العقل من خلال قوانين التلازم والاستنتاج والمقارنة، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، فهذا السؤال الاستفهامي لا يُنتظر منه جواب، بل هو حجَّة عقلية تنطلق من تباين واضح، يُسلِّم به كل عقل سليم، وعدَّه محمد العمري من أبرز صور الحِجاج المقنِع غير الجدلي؛ لأنه يبني سلَّمًا عقليًّا نحو الاستيعاب.(١)

أما الحِجاج الأخلاقي، فيتمثل في اعتماد الخطاب على القيم العليا مثل الصدق، والعدل، والإحسان، والوفاء، والتواضع إلخ، وهو يُخاطب الضمير الإنساني لا الذكاء الذهني فقط، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فالنص يُقدِّم توجيهًا يقوم على سلَّم قيميٍّ أخلاقي، يوجِّه الفعل الإنساني عبر المعاني لا المجادلة، وأشار عبد الله صولة إلى أن «الحِجاج الأخلاقي هو جوهر البلاغة الإقناعية في النصوص القرآنية؛ لأنه يستند إلى المشترك القيمي الذي لا يتطلَّب جدالًا».(٢)

أما الحِجاج الخطابي، فهو الأكثر اتساعًا، إذ يستثمر الصوت البلاغي للنص «من الصور والاستعارات، إلى الطباق والمقابلة، إلى الجمل الإيقاعية والتكرار، وغيرها، ويُعدُّ هذا النمط مزيجًا من العقلي والوجداني، لكنه يُصاغ بأسلوب خطابي متدرج التأثير، وغالبًا ما يُستخدم في المقامات التي تتطلب شد الانتباه أو تحريك الشعور»(٣)، وهكذا يظهر التناسق بين هذه الأنماط الثلاثة في بناء الخطاب الحِجاجي القرآني، فهي تُنسج معًا بحسب المقام، ويتولَّى الأسلوب وظيفة المزج والمواءمة بينها.

سياقات الحِجاج القرآني وأهدافه:

يتميَّز الحِجاج القرآني بخصوصية بارزة تتمثَّل في ارتباطه الوثيق بالسياق، وتحدده الدقيق بالهدف، إذ لا يرد في القرآن خطاب حِجاجي خارج مقامه، ولا تُستخدم وسائله إلا بما

(١) ينظر: محمد العمري: الحجاج مفهومه ومجالاته، ص١٠٥.
(٢) ينظر: عبد الله صولة: الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ص١١٣.
(٣) ينظر: محمود كاظم الغزي: أنماط البنى الحجاجية في سور الحواميم، ص١٢.

يوافق الغاية التقويمية أو العقدية أو السلوكية المرجوَّة، ولهذا فإن فهم البنية الحِجاجية في النص القرآني يقتضي الانتباه إلى المقامات والسياقات التي تُوجَّه فيها الحجج، وإلى المقاصد التي يسعى النص لتحقيقها من خلالها.

وجاء خطاب القرآن بكل أنواع الخطاب واستعان بألوان من الحجج والبراهين، بعضها يوافق طبيعة الذهن العربي بوضوح مقدماته ونتائجه، وبعضها جاء على ما عرف بعد عند المتكلمين من اعتماد المحاجة المستندة إلى الأدلة الدقيقة المعقدة، وفي سعيه لإرساء عملية حجاجية صحِّية، حرص الخطاب القرآني على مراعاة «شروط التلقي ودرجات الاعتقاد ومدارك المتلقين وأوضاعهم الزمنية والمكانية استجابة لدواعي الإقناع ومسلكيات التخاطب وأنماطه السلوكية وبنياته البيانية وأسسه المنطقية وسلمية الاستدلالات العقلية وحركية الأفعال الحجاجية»(١)، فهو في أكثر من موضع يؤكد على دور الحجة في الإقناع وبطرق مختلفة، أي بحسب قدرات الناس العقلية والعاطفية، فمنهم من يقنع بالفكرة عن طريق استهواء العاطفة وإيقاظ الشعور، ومنهم من لا يذعن لغير البرهان المباشر ويستخدم الاستدلال المنطقي كالقياس والتَّمثيل والاستقراء، كما يذهب الزَّركشي الذي اصطنع البرهان للتعريف بعلوم القرآن إلى أنَّ القرآن قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة والحجج وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسَّمعية إلَّا وكتاب الله قد نطق به.(٢)

وبتتبع الحِجاج القرآني نجد أنه يتنوع بحسب المقام إلى سياقات عقدية، وسلوكية، وتاريخية، وتربوية، ولكل سياق بنيته الخاصة، وأسلوبه الإقناعي المناسب، ففي السياقات العقدية، يهدف الحِجاج إلى إثبات التوحيد، والبعث، والعدل الإلهي، وغيرها من القضايا الكبرى، ويُبنى على برهنة عقلية وتعليل بياني، كما في قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ

(١) أحمد يوسف، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران، ٢٠٠٤، ص ٨٧.

(٢) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦هـ، ج٢، ص ٣٤.

قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

أما في السياقات السلوكية، فالحِجاج يُستخدم لتقويم الفعل البشري، وضبط العلاقات بين الأفراد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، فالنص هنا يُقدِّم حجة سردية قصيرة توضح نمطًا منحرفًا في السلوك، ليُدين صاحبه ضمنيًّا دون مواجهة مباشرة، وهي تقنية بلاغية حِجاجية ذات أثر أخلاقي عميق.

وفي السياقات التاريخية، يُستدعى الحِجاج لاستعراض سير الأقوام السابقة، بغرض التحذير أو العبرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

أما السياقات التقويمية في البحث فتتميَّز بخطاب حِجاجي هادئ، يقوم على اللين والموعظة والتوجيه غير الصدامي، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالخطاب هنا يوظِّف بنية توصيفية تُقرِّر الواقع وتُلمِّح للتقويم، فيستبطن النص حُجَّة تربوية من نوع خاص، قائمة على التذكير بالعاطفة والرحمة لا على المجادلة.

فالخطاب القرآني يصنف ضمن الخطاب الحجاجي لكونه جاء ردًّا على خطابات تعتمد عقائد ومناهج فاسدة، فهو يطرح أمرًا أساسيًّا يتمثَّل في عقيدة التَّوحيد، ويقدِّم الحجج بمستويات مختلفة والمدعَّمة لهذا الأمر ضدَّ ما يعتقده المتلقون من مشركين وملحدين ومنكرين للنبوَّة والمعاد ومجادلين، وذلك يجعل أيَّ قول مدعَّم صالحًا أو مقبولًا بمختلف الوسائل، ومن خلال مختلف الصِّيغ اللُّغوية إذا اعتبرنا أنَّ هذه الصيغ هي أفعال كلام تمارس وظيفة الإقناع من خلال قوَّتها الكلامية التي تتجلَّى بدورها من خلال طرائق منطقية في البناء والرَّبط والعلاقات الاستدلالية التي يمثِّل الحجاج أبرز مظاهرها.(١)

(١) ينظر: أمنية بلعلى، الإقناع، المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٨٩، ٢٠٠٣م.

المحور الثاني: مفهوم العتاب وبلاغته في القرآن وأدب الخطاب الإلهي مع النبي ﷺ:

يتميَّز الخطاب الإلهي الموجَّه إلى النبي ﷺ بأسلوب بلاغي رفيع، يجمع بين الرحمة واللطف والعتاب الرصين، في إطارٍ من التقدير والتوجيه التقويمي (إصلاحي)، بحيث يصبح نموذجًا للحِجاج البلاغي الهادف إلى الإصلاح، والعتاب في اللغة مصدر عاتب، «وعتب عليه عتبًا وعتابًا وتعتابًا ومعتبًا ومعتبةً، لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالبًا حسن مراجعته، ومذكرًا إياه بما كرهه منه».(١)

وهو في المعنى الاصطلاحي لا يخرج عن المعنى اللغوي المذكور سابقًا، فالعتاب: مخاطبة الإدلال، ومذاكرة الموجدة(٢)، وهو لوم من طرف لآخر على سبيل الحب والإدلال(٣)، وإنما يعاتب من ترجى عنده العتبى، أي: الرجوع عن الذنب والإساءة، أو ما هو أولى، وهذا المعنى هو أنسب معاني العتاب وأمسها بالموضوع.

وفي النظر إلى الفرق بين العتاب واللوم وغيره، فإن العتاب يمثِّل في جوهره نوعًا من التوجيه الكلامي اللطيف الذي يُستعمل بين المتحابين أو المتقاربين عند حدوث مخالفة ما، لكنه يختلف من حيث بنيته المقصدية وأثره الشعوري عن كل من اللوم والعفو، وقد مر بنا دلالته اللغوية والاصطلاحية، وقد ورد العتاب في القرآن بمعناها في اللغة وهو: مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، قال الشاعر(٤):

(١) الفراهيدي، العين، تحقيق محمد مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٢م، ٢/٧٥-٧٧، الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م، ١/١٧٥ -١٧٧.

(٢) ينظر: المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد حمدان، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٠م، ص٢٣٦.

(٣) ينظر: مجموعة باحثين، نظرة النعيم، دار الوسيلة للنشر، جدة، ٨/٣٤١٩.

(٤) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ١/١٧٦.

أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اجتناب

وللتفريق البلاغي بينه وبين اللوم، فإن اللوم يشتدُّ في النبرة ويتجه نحو التوبيخ والتقريع، بينما العتاب يخفِّف حدَّة التوجيه ويكسوه بلبوس الحنان، وقد عبَّر العسكري عن ذلك بقوله: هو «عذل الإنسان عما فيه عيب».(١)

أما العفو، فهو في اللغة مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه.(٢)

وهو في الاصطلاح كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من استحق عقوبة فتركها، فقد عفا(٣)، فهو يقع في المقابل الدلالي للوم، ويأتي بوصفه تجاوزًا عن الخطأ ورفعًا للعقوبة أو الإنكار، ومن ثمَّ فهو يحمل في طيَّاته دلالة أخلاقية عليا، تنصرف إلى الكرم أو الرحمة أو الصفح، ولذا فإن العتاب يتوسَّط -بلاغيًّا ووظيفيًّا- بين اللوم والعفو، فيجمع من أحدهما نبرة التنبيه، ومن الآخر روح التسامح، ويتميَّز عنهما معًا بنَفَس توجيهي إصلاحي يُراعي المقام والخطاب والسياق.

آداب وخصائص العتاب الإلهي الموجَّه للنبي ﷺ:

يتسم الخطاب الإلهي الموجَّه إلى النبي محمد ﷺ ببلاغة سامقة، تقوم على الجمع بين اللين والحزم، وبين التوجيه والتقدير، في قالب تعبيري يتفرد به النص القرآني عن سائر النصوص الدينية والخطابية، ومن أبرز الآداب البلاغية لهذا الخطاب:

1 - الرفق في التوجيه، حيث يُقدَّم العتاب غالبًا مسبوقًا بتمهيد لطيف أو مدح، فقد

(١) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة، ص٣٥٠.
(٢) ابن فارس: مقاييس اللغة، ٥٦/٤.
(٣) ينظر: أيوب الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص٥٣، ٥٩٨.

قال ﷺ: «لم يدخل الرفق في شيء إلا زانه»(1)، وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق!»(2)، ففي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، افتتحت بالعفو قبل عرض موطن العتاب، وهذا التقديم يدل على منزلة النبي ﷺ، ويجعل العتاب يأتي في إطار المودة والرعاية.

2 - الاقتصاد اللفظي مع قوة الدلالة، فالآيات الموجهة للنبي ﷺ تتسم بالإيجاز الذي لا يُخلُّ، ويُضفي على الخطاب وقارًا وجاذبية.

3 - غياب التصريح في بعض المواضع، حيث تُستخدم الضمائر أو التلميحات، مما يُبعد الخطاب عن الجرح الشخصي، ويجعله أقرب إلى الحوار التقويمي (إصلاحي) الداخلي.

4 - التوازن بين الحجة والعاطفة، فلا يُغفل النص جانبًا وجدانيًّا في أثناء عرض الحجة، كما لا يُهمل الغاية الإقناعية في ظل هذا الحضور العاطفي.

وفي كل ما سبق يؤكد أن الخطاب الإلهي في العتاب لم يكن إلا أحد تجليات الحِجاج الأسلوبي القرآني، الذي يجمع بين: دقة اللغة، ومراعاة المقام، وفعالية التأثير، وسمو الغاية فهو خطاب يُحيل إلى سلطة الحبِّ والبيان، ويكفي أنه موجه إلى أحب خلق الله إليه، ليكون البلاغ فيه على أرقى درجات الإنسانية والرحمة.

أنواع العتاب الإلهي:

تختلف أنواع العتاب باختلاف السياقات والمقاصد والأساليب، فهناك العتاب الرقيق (اللطيف)، الذي يُقال بدافع المحبة، ويتوسل الرقة، ويعتمد لغة التودد، وهذا ما نجده في قول الله تعالى لنبيّه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، حيث يتقدم العفو على العتاب، إيذانًا بالصفح قبل المحاسبة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٦٧/٢١، رقم ١٣٥٣١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٤٦/٢٠، رقم ١٣٠٥٢.

وهناك العتاب التقويمي (التوجيهي)، الذي يتوجَّه إلى تصحيح فعل معيَّن، ويكون صريحًا في بيانه، لكن دون إخلال بمقام المخاطَب، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧]، إذ يحمل توجيهًا ضمنيًّا لسداد القرار دون تجريح، وفيه «تعريض بمعاتبة النبي ﷺ بالعتاب المباشر في خشيته الناس».(١)

كما نلحظ نوعًا ثالثًا، وهو العتاب البياني المباشر، الذي يُصرّح بالفعل ويضع البديل ويبين الموقف، مثل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ [التحريم: ١]، إذ يتجه العتاب هنا إلى الموقف مباشرة بلغة توجيهية واضحة، ويمكن أيضًا أن نتحدث عن العتاب الضمني الذي يُفهم من السياق العام للخطاب دون أن يُصرَّح به، كما في بعض الأساليب البيانية التي تكتفي بالإشارة أو السكوت.

وتتفاوت هذه الأنواع بحسب طبيعة المقام، وتاريخ العلاقة، وموقع المخاطَب، وهدف الخطاب، وتُظهر في مجملها عبقرية البيان القرآني في اختيار نوع العتاب المناسب لكل موقف بحسب مقامه ودقته وتوقيت نزوله، فهناك أساليب أو أنواع أخرى منها أسلوب التوجيه، وأسلوب التنبيه، وأسلوب التحذير(٢)، ومن هنا، فإن تصنيف العتاب في القرآن الكريم هو تصنيف دلالي مقصود، يرتبط بوظائف الحجاج، ومراتب التربية، وسمات الرحمة التي تحكم خطاب الله لعباده، وعلى رأسهم خاتم النبيين ﷺ.

ختامًا يتبين من هذا المبحث أن الحِجاج في بنيته البلاغية والأسلوبية نشاط تواصلي مركَّب يستند إلى خلفية عقلية ودلالية وسياقية.

وقد وقفنا عند الآليات الحجاجية التي يُبنى عليها الخطاب من مقدمات عقلية ووجدانية وأدوات لغوية إنشائية تؤسس لإنتاج الحُجَّة، وتُرسِّخ العلاقة بين الحِجاج وبلاغة

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ، ٣٨٨/٤.
(٢) د. عويد المطرفي، آيات عتاب المصطفى في ضوء العصمة والاجتهاد، مكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات للنشر، ٢٠٠٥م، ص١٤.

الإقناع، كما أُشير إلى أنماط الحِجاج القرآني التي تتراوح بين العقلي والأخلاقي والخطابي.

وعلى ضوء هذا التأسيس النظري، سيُنتقل في المبحث الآتي إلى دراسة تطبيقية، ترصد أنماط الحِجاج البلاغي وتجلياته الأسلوبية في مواضع مختارة من العتاب الإلهي للنبي ﷺ، وفق قراءة تحليلية تراعي النسق البلاغي، والمقصد التداولي، والبعد التقويمي (التوجيهي) للخطاب القرآني.

المبحث الثاني: أنماط الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي

يمثِّل هذا المبحث الجانب التطبيقي من الدراسة، إذ يُعنى بتحليل نماذج مختارة من آيات العتاب الإلهي الموجه للنبي ﷺ، من خلال تفعيل أدوات المنهج الأسلوبي في ضوء الرؤية الحجاجية التي تم تأصيلها في المبحث الأول، ويهدف التحليل إلى تتبُّع الخصائص البلاغية للخطاب الإلهي، وتفكيك آلياته اللغوية، وتبيان وظائفه التقويمية، بما يُبرز فاعلية الحجاج القرآني في صياغة العتاب بأسلوب رفيع يجمع بين التوجيه والتنبيه، دون تجريح أو تصعيد، ويأتي هذا المبحث ليُجسِّد أنماط الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي عبر ثلاثة محاور رئيسة سيتم تناولها كالآتي:

المحور الأول: الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي الرقيق (اللطيف):

يُعدُّ العتاب في الخطاب الإلهي للنبي ﷺ واحدًا من أبرز مظاهر الحجاج اللطيف والرفيق، حيث يتجلَّى بأسلوب يجمع بين الحزم والرقة، ويهدف إلى التوجيه بلين دون تهديد أو إدانة، ويحرص على المحافظة على مقام النبي ﷺ ويُراعي خصوصية العلاقة بين الله ورسوله، وفي هذا المحور، سيتم تحليل آيات مختارة تعكس هذا الأسلوب الحجاجي اللطيف، مع التركيز على كيفية توظيف القرآن الكريم لآليات بلاغية وأساليب أسلوبية تحقق الحجاج في إطار من الرفق والرحمة، بحيث يُبرز الخطاب عتابًا رقيقًا يتلاءم مع مقام النبوة ويُحفِّز على الإصلاح والتقويم.

وسينطلق التحليل من فهم كيف يعمل هذا النوع من العتاب الحجاجي على بناء علاقة تواصلية فاعلة مع المخاطب، تراعي المشاعر، وتحقق الغايات التقويمية بأسلوب يُعلي من مكانة الرسالة دون المساس بالكرامة الشخصية، وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

تمثّل هذه الآية القرآنية مثالًا راقيًا على العتاب الإلهي الذي يتلبَّس بالحِجاج البلاغي في أسلوب رفيق رقيق، يخاطب وجدان النبي ﷺ ويقوِّم فعله أو نيته المحتملة دون جرح أو تقريع، بل بلطفٍ بالغ يراعي المقام النبوي، ويؤسِّس في الوقت ذاته لقيمة تربوية عميقة تتعلق بمفهوم المفاضلة بين الناس بناء على معايير الصفاء الديني لا المظهر الاجتماعي، فالافتتاح بنهي صريح: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾ يوحي ابتداءً بوجود سلوك محتمل لم يقع بعد، لكنه يخضع لضغط مجتمعي أو اقتراح خارجي يُراد للنبي ﷺ أن يتفاداه، وهو طرد الضعفاء من حضرة المجلس النبوي استرضاءً لأصحاب الجاه من المشركين، غير أن النهي هنا يأتي في صورة خطاب تربوي وقائي، وظيفته توجيهية تقويمية، لا إدانة فيها، وهذا يتفق مع الطبيعة الأسلوبية للنص التي تراعي توازنًا دقيقًا بين الوظيفة التعبيرية والوظيفة الإقناعية.

ويُبنى الحجاج مباشرةً بعد النهي، من خلال عرض صفات المخاطَب عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ ، وهذه الصفات تُقيم الحُجَّة على القيمة الباطنة التي يحملها أولئك المؤمنون، فهم موصوفون بدعاء مستمر، يمتد من أول النهار إلى آخره، في صورة تُوحِّد الزمن التعبُّدي وتُظهر الإخلاص المتواصل، وعبارة﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ تعبِّر عن أن فعلهم خالص لا تشوبه رياء أو منفعة، مما يمنح خطاب العتاب بعدًا قيميًّا محضًا، ويُفقد مطلب المشركين -بطرد هؤلاء- أي حُجّة اعتبارية.

وعلى المستوى الأسلوبي، نلاحظ أن الجملة تحمل توازنًا صوتيًّا دقيقًا بين الغداة والعشي، وكأنها تؤسس لإيقاع تعبُّدي دائري، لا ينقطع، ويعبِّر عن الاستغراق الروحي الكامل، كما أن الجملة توصف عبادتهم بأنها موجهة إلى وجه الله، مما يضفي عليها قداسة لا تنازع، وقد أشار ابن عاشور إلى هذا المعنى قائلًا: «أراد الله بهذه الصفات أن يُعلي شأن هؤلاء الفقراء من المؤمنين في نفوس من يتوهمون أن غنى الكافر أكرم عند الله من فقر المؤمن»(١).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ٢٤٦/٧.

ويلي ذلك تركيب أسلوبي متقن قائم على النفي المزدوج: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وهذا التكرار البنائي يحمل دلالة بلاغية قوية؛ إذ يُظهر أن المسؤولية الدينية ليست على النبي ﷺ من جهة حساب الناس، ولا على الناس من جهة محاسبته، في تعبير يقطع الطريق على كل محاولة لربط القرب أو البعد من النبي ﷺ بمقاييس دنيوية، ويُبرز هذا التكرار أيضًا قدرة النص على صنع الموازنة البيانية، التي تحقق الإقناع بأسلوب غير مباشر، في صيغة تُبعد اللوم عن النبي ﷺ، لكنها في الوقت ذاته تُعرِّي الحُجَّة القبلية القريشية، التي كانت تطالب بإبعاد الفقراء من حضرته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

يظهر العتاب الإلهي للنبي ﷺ في سياق مرتبط بزمن الوحي، عندما سأله كفار قريش أسئلة عن أصحاب الكهف والروح وذي القرنين، فوعدهم أن يجيبهم في الغد دون أن يقول: «إن شاء الله» طمعًا في سرعة الجواب بوحي من الله، فجاء العتاب الإلهي هنا في هيئة تقويمية حجاجية متلبسة بأسلوب تربوي رفيق، يؤسس قيمة عقدية في عمقها، وهي ردُّ العلم إلى الله وتقييد العزم البشري بإرادة العليم الحكيم، ويمضي النص في هذا الخطاب دون أن يذكر الفعل الخطأ الذي ارتُكب، بل يكتفي بنهيٍ بلاغيٍّ يحمل في طياته الإشارة الرقيقة إلى موضع الخطأ، دون تصريح أو توبيخ.

يبتدئ العتاب بفعل النهي المؤكد: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾، وقد جاء مؤكدًا بنون التوكيد الثقيلة، في تعبير يُحاكي مواضع الجزم العقدي، لا مجرد التوجيه الأخلاقي، مما يدل على أهمية المعنى العقدي الكامن خلف العبارة، غير أن هذا التوكيد لا يخرج عن سياق الأدب مع المخاطَب، فالنهي جاء مسبوقًا بالفعل (ولا)، وفيه تفادي للتسمية المباشرة، مما يحافظ على مقام النبي ﷺ دون تقليل أو تعريض، ومن ثمَّ فإن أسلوب العتاب هنا يُفعِّل أرقى مستويات البلاغة الحجاجية التي تجمع بين حفظ المقام، وتأكيد المبدأ، وإبلاغ الغاية.

أما قوله: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾، فهو جملة سردية تحمل داخليًّا عتابًا على الاطمئنان إلى الفعل المستقبلي دون استحضار شرط المشيئة، ومن ثم جاءت الجملة التالية: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لتكون تصحيحًا ضمنيًّا رفيقًا، يُقرِّر مبدأ التقييد بإرادة الله بوصفه تصورًا عقديًّا أساسه التوكل، وهذا المقام تعليم ضمني للأمة كلها، وأشار الطاهر بن عاشور إلى أن هذا الموضع أسلوب في التأديب الإلهي وتعليم الأمة توخي الأدب في نسبة الأفعال إلى إرادة الله تعالى.(١)

وفي ضوء الأسلوب، نلاحظ أن الانتقال من الجملة الخبرية «إني فاعل» إلى الجملة الشرطية «إلا أن يشاء الله» يُحدِث انزياحًا بلاغيًّا دقيقًا، يحوِّل الخبر الحاسم إلى احتمال مفتوح، ويوسع دائرة التلقي من الذات إلى المجال الكوني الرحب، وهذا التحول في البنية الأسلوبية من الإخبار إلى التعليق الشرطي يحمل طاقة بيانية تُصاغ في قالب حجاجي تربوي، يجعل المخاطَب يتأمل الحدث باعتباره قرارًا إلهيًّا يُستحضر فيه الغيب.

أما تتمة الآية: ﴿واذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فهي عبارة تختزن بعدًا وجدانيًّا عميقًا، فالنسيان هنا يُجبر بالذكر، وفيه بلاغة تسديد وتقويم وتوجيه إلى ما يعيد الصلة، وبهذا تتجلى أرقى صور العتاب القرآني الذي يتسلَّل إلى النفس ليطهّرها من لحظات الركون إلى النفس أو التقدير البشري المجرَّد.(٢)

وفي قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

يتجلى نموذج رفيع من العتاب الإلهي الحجاجي الرقيق (اللطيف) الذي يجمع بين إشراق الرحمة الإلهية، وصدق التوجيه النبوي، وقوة البناء البلاغي، بما يرسِّخ وظيفة العتاب في القرآن كأسلوب نبوي تربوي يسمو فوق الانفعال والمحاسبة الصارخة، فالآية افتُتحت

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م، ٢٩٦/١٦.
(٢) ينظر: ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ٢٢٠/١٥-٢٢١.

بالفعل: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وهو فعل لا يُعبِّر عن وقوع خطأ، بل يسبق حتى ذكر الفعل الذي استحق العتاب، قال ابن جرير: «وهذا عتاب من الله تعالى ذكره، عاتب به نبيَّه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين».(١)

والتقديم بـ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، قبل ذكر الإذن، يُحيل إلى تقنية بلاغية أسلوبية تُبطل أثر العتاب ابتداءً، وتحيطه بإطار من المغفرة والرضا، وهو من أرفع ما يمكن أن يُقال في مقام التربية الإلهية للنبي ﷺ، فالضمير في عنك يُخصِّص الخطاب، ويؤكد أن هذا العفو موجَّه للنبي وحده، لا إلى غيره، في خصوصية شرف وخصوصية رقابة ربانية، وهو ما يعكس إدماجًا بين البنية النحوية (تقديم الجملة الفعلية وتخصيص الضمير)، وبين الدلالة التقويمية، وبين وظيفة الحِجاج الضمني الذي يُعلي من منزلة المخاطب، حتى وهو يوجِّه إليه نقدًا ناعمًا في صورة سؤال تقريري: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وهو ماعبر عنه عون بقوله: «هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة».(٢)

فالسؤال: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ يكشف عن الحكمة التقويمية في تمحيص الصفوف، وهو عتاب يُقوِّم لا يُؤنِّب، ويُظهِر أن الإذن بالانصراف للمنافقين كان تصرفًا مشروعًا من حيث الظاهر، لكنه يُفوِّت مصلحة تربوية في كشف الصادق من الكاذب، وقد أشار ابن عاشور إلى أن العتاب هنا جاء «بصيغة الاستفهام عن العلة إيماء إلى أنه ما أذن لهم إلا لسبب تأوله ورجا منه الصلاح على الجملة بحيث يسأل عن مثله في استعمال السؤال من سائل يطلب العلم وهذا من صيغ التلطف في الإنكار أو اللوم».(٣)

أما ختام الآية: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٧٢/١٤.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ، ١٥٩/٤.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م، ١٠٧/١٠.

٤٣]، «وتعلمَ من الكاذب منهم المتخلفُ نفاقًا وشكًّا في دين الله»(١)، فالخطاب ينتقل من العتاب إلى المقصد، وهو مقام التبصُّر والتحقيق، ويُراعي في ذلك تدرجًا في المعرفة: أولًا يتبين، وهي معرفة بالعلامات، ثم تعلم، وهي معرفة يقينية، وهذا التحول من التبيُّن إلى العلم.

يمثل العتاب الإلهي للنبي ﷺ، كما تجلَّى في الآيات التي تناولناها، نموذجًا فريدًا من الخطاب الحجاجي التلطُّفي، وقد دلَّت المواضع الثلاثة المدروسة -في سور الأنعام، والكهف، والتوبة- على أن العتاب القرآني، حين يكون رفيقًا، لا يُفرِّط في مضمونه الحجاجي، بل يحقق مقاصده الإقناعية من غير صدام، ويقود المتلقي إلى التصحيح من غير تعنيف، وهكذا تتجلى البلاغة القرآنية في أرقى صورها، عندما يُوظَّف العتاب أداةً لإعادة التوجيه، بأسلوب يحتفي بالمخاطَب، ويزكّي المقصد، ويترسَّم في كل ذلك هدي النبوة ومنهج التربية الإلهية.

(١) الطبري: تفسير الطبري، ١٤/٢٧٣.

المحور الثاني: الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي التقويمي (التوجيهي):

يمثّل هذا المحور نمطًا مغايرًا من أنماط العتاب الإلهي، يعلو فيه صوت التوجيه، وتُستثمر فيه وسائل الحِجاج لا لأجل التلطف وحده، بل بغرض تقويم الفعل، وضبط التصرف، وتأكيد البصيرة، ولا يزال العتاب في هذا المقام محكومًا بأدب الخطاب الإلهي مع النبي ﷺ، لكنه يتوسَّل بأساليب أوضح، وصيغ أكثر توجيهًا، دون أن يفقد لياقته البيانية، وأول ما يطالعنا في هذا المحور قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

يمثّل هذا الموضع من العتاب الإلهي نموذجًا ناصعًا للعتاب التوجيهي المباشر، إذ يتضمَّن نهيًا صريحًا وقاطعًا موجَّهًا إلى النبي ﷺ في مقام مراجعة موقف سابق اتسم باللين والتجاوز في غير موضعه، كما ورد في الروايات من صلاته على عبد الله بن أبيّ بن سلول، رأس النفاق، وجاء هذا العتاب -الذي يحمل وظيفة تقويمية توجيهية بالدرجة الأولى- بلغة تكتسب قوتها من الصيغة الحاسمة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، فالجملة تحمل أدوات نهي متكررة، تنقسم إلى نهي عن فعل تعبديّ: الصلاة، وآخر سلوكي: القيام على القبر، وكلاهما محاط بسياق تفسيري تعليلي: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

ويتجلى الجانب البلاغي الأسلوبي من خلال توظيف أسلوبي النهي والتعليل في حقل حجاجي واضح، يسعى إلى تقويم موقف نبويّ لم يكن فيه مخالفة شرعية، ولكن كان فيه ميل إلى الرحمة والتجاوز، فجاء العتاب ليضبط هذا الميل بمقتضى المصلحة العقدية والتقويمية للأمة، فالنهي هنا لا يعارض الرحمة، بل يعيد ضبط ميدانها ومقتضياتها.

وتزداد النبرة الحجاجية أثرًا بدخول العلة التي تبني الحُجَّة: ٱ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ، فالعلة جاءت ثلاثية: الكفر، والمفارقة الحياتية على هذا الكفر،

والإصرار على الفسق، مما يُكمل صورة السياق التوجيهي الحاد الذي يقوِّم ميل الرحمة النبوية في موضع يقتضي الحزم والعقيدة، وأشار ابن عاشور إلى أن هذا السياق من المواطن التي وضَّحت الفصل بين الرحمة الفطرية عند النبي ﷺ، وبين مقتضى الهداية الربانية في قيادة الأمة.(١)

وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩].

تجسِّد هذه الآيات نموذجًا بالغ الدلالة من نماذج العتاب الإلهي، الذي يزاوج بين النقد التوجيهي الحازم، والرحمة الربانية الخاتمة، في إطار حجاجي تقويمي يُعالج سلوكًا ميدانيًّا اتخذه النبي ﷺ وبعض أصحابه في أعقاب معركة بدر الكبرى، حين آثروا الفداء على القتل، طمعًا في المصلحة الظاهرة، خلافًا لما كانت تقتضيه مقتضيات الحزم الاستراتيجي في ظرف المواجهة، قال السعدي: «هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم بدر إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء».(٢)

يفتتح النص بعبارة ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي: ما صح له وما استقام وهي صيغة إنكارية تحمل شحنة بلاغية قوية، تنفي بصيغة التوقير أن يُؤثر النبي ﷺ خيار الأسر قبل الإثخان في العدو.(٣)

ثم تأتي الجملة التالية: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ لتُبيّن الأساس الحجاجي لهذا العتاب، فالخطاب ينتقل من التنبيه إلى التقويم القيمي، فيقارن بين إرادتين:

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، ٢٨٥/١١.
(٢) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ، ص٣٢٦.
(٣) الزمخشري: الكشاف، ٥٩٨/٢.

إرادة بشرية قريبة تتعلق بمنافع دنيوية، وإرادة إلهية أسمى تتصل بالمقاصد الأخروية، وهذه المقابلة الحجاجية تضع المتلقي أمام ميزان أخلاقي ومعرفي، يرفع من شأن إرادة الله ومقصده، ويعيد ترتيب الأولويات.

ومن الناحية الأسلوبية، يتسم السياق بكثافة في التوجيه والمراجعة: إذ نلاحظ استعمال جملة سببية مقدَّرة: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهو شرط غايته التنبيه إلى التدرج الصحيح في إدارة المعركة، مما يدل على أن الأسلوب الحواري في الخطاب الإلهي يتسم بإعادة بناء الوعي القيادي من خلال التأنيب المقرون بالحكمة.

ويبلغ الحِجاج ذروته في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، وهو تركيب بلاغي يُوظِّف أداة شرط امتناعي (لولا)، ليُبرز أن العقوبة ارتُفعت بسبب سابق علم الله وتقديره، وهو ما أشار إليه الشيرازي حين قال: «لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده أو أن لا يعذب أهل بدر أو قوما بما لم يصرح لهم بالنهي عنه، أو أن الفدية التي أخذوها من الفداء عَذَابٌ عَظِيم».(١)

ثم تُختتم الآيات بعبارة: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾، وهي جملة بلاغية تُعيد التوازن النفسي بعد التوجيه، وتُطَمْئِن المخاطَبين بأن ما نالوه لم يكن حرامًا، فهي إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المعاتبة.(٢)

وبهذا، تكون هذه الآيات الثلاث مثالًا دقيقًا على نمط العتاب الحِجاجي التوجيهي، الذي يُعيد ضبط البوصلة السلوكية عند القيادة النبوية، من غير مساس بالمقام، بل معزِّزًا لسلطة النبوة بالتقويم الرباني الحكيم.

(١) ناصر الدين أبو سعيد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠ هـ، ٣٩١/١.
(٢) المرجع السابق: ٣٩١/١.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

يجيء الخطاب الإلهي في هذه الآية الكريمة في سياق ضبط مسلك قوليّ له تبعات شرعية، وذلك في ضوء التربية الربانية للنبي ﷺ والأمة من بعده في باب الأيمان، وما يترتب عليها من التزامات، والآية وإن جاءت بصيغة تعليمية، فإنها تنطوي على تقويم خفيٍّ لموقف نبوي سابق، حين جرى استخدام اليمين في غير محلِّه، لأغراض شخصية أو لتهدئة شأن عائلي، وهو ما يُلمح إليه أسلوب العتاب في التحريم، ويُوضّح تفصيله في هذه الآية.

يفتتح النص بجملة تقريرية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، وهي جملة ذات طابع تلطيفي تمهيدي، تُهيئ المتلقي للتفرقة بين اليمين غير المقصود (اللغو)، واليمين المعقَّد الذي يقصد به المنع أو الإلزام أو الامتناع، وهذا الاستهلال البلاغي يحمل في بنيته نفيًا وإثباتًا، يحقق توازنًا أسلوبيًا بين العفو والمحاسبة، وهو ما يُبرز البُعد الحِجاجي في الخطاب، بوصفه نابعًا من مبدأ العدل لا التشديد.

ثم تأتي الجملة المفتاحية: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ لتُحدِّد مناط المؤاخذة الشرعية، وتؤسس لحجَّة قوية في تفريق الأحكام، وهي حجة تتأسس على نية التعمُّد والالتزام، فهذا النوع من الخطاب يُعبِّر عن وظيفة تقويمية معرفية، تجعل المخاطَب يعيد النظر في سلوكه القوليّ، ويراجع دلالة يمينه، ويُدرك حدود القول المشروع من القول المؤاخذ عليه، وهنا تظهر ملامح المنهج الأسلوبي من خلال توظيف التوازي البنيوي بين الجملتين، والتضاد بين (لا يؤاخذ... يؤاخذ)، مما يُعزز حِجاجية التوجيه، ويُقرّب الفكرة للذهن.

ثم يُستكمل البناء التقويمي (التوجيهي) ببيان الكفارة، عبر ثلاثة خيارات تدريجية:

إطعام عشرة، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، ثم الانتقال إلى الصوم عند العجز، وهي بنية بلاغية تدرجية، تُراعي التفاوت الاجتماعي، وتُعطي الخطاب بعدًا عمليًّا لا مجرد توجيهي.

هذا التفصيل في الكفارة هو جزء من منظومة حِجاجية تقويميَّة، تُظهر أن القول ليس معزولًا عن التبعات، وأن التربية الإلهية تتجاوز النية إلى الأثر، والسلوك إلى الترشيد.(١)

ويُختتم النص بوصية حاسمة: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾، وهي عبارة جامعة موجزة، تُلخِّص مضمون العتاب التوجيهي، وتُحوِّله إلى قاعدة أخلاقية، ثم يأتي مسك الختام: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وهي صيغة تفسيرية للغرض الحِجاجي من هذا البيان: الشكر الناتج عن الفهم، والامتثال المولَّد للامتنان، مما يدمج التوجيه بالتزكية.

أما من الجانب الأسلوبي، فإن تكرار الصيغ الفعلية بصيغة المضارع: (يؤاخذكم، عقدتم، أطعموا، كفارته، احفظوا) يخلق حركة لغوية حية، تجعل العتاب فعلًا حاضرًا، لا قصة ماضية، وتحوِّل العبرة إلى قاعدة، والواقعة إلى تشريع.

وهكذا يتضح من خلال تحليل نماذج العتاب الإلهي في هذا المحور أن الخطاب القرآني يقوم على ممارسة حِجاج بلاغي ذي طابع تقويمي يروم إعادة ضبط الموقف، وتوجيه السلوك، وبُني هذا الحِجاج في المواضع السابقة على أدوات لغوية وأُطر أسلوبية محكمة، تُزاوج بين أسلوب النهي، والتعليل، والتقابل، والتدرج، والتقويم، ما أضفى على الخطاب بعدًا بلاغيًّا عاليًا، ونبرة حجاجية عقلانية واضحة، دون أن تُغفل اللين.

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣٢/٧.

المحور الثالث: الحجاج البياني في العتاب الإلهي المباشر:

يتخذ العتاب الإلهي في بعض المواضع القرآنية بنية حجاجية صريحة، يتجلَّى فيها البيان المباشر، ويُصرَّح فيها بالتقويم بأسلوب تعليمي واضح لا يُحيل على التلميح أو المجازفة بالتأويل، ويأتي هذا النوع من العتاب مصحوبًا بأدوات تأكيدية ولغوية وأساليب بيانية تتجاوز البنية الإنشائية إلى المقاصد الواضحة، فيغدو بذلك الخطاب ضربًا من الحِجاج البياني التقويمي (التوجيهي)، يَشفع العتاب بالإيضاح، ويربط النهي بالعلَّة، ويصوغ الإرشاد صياغة مباشرة، وفي هذا المحور، سيتم تحليل بعض المواضع القرآنية التي تمثل هذا اللون من العتاب، الذي يحضر فيه ملامح البيان التقويمي (الإرشادي) الواضح والمباشرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يُقدِّم العتاب الإلهي في هذه الآية الكريمة صورة من صور العتاب الرباني الرفيع، الذي يُزاوج بين الإبانة البلاغية والدقة التقويمية، فيكشف بأسلوب بياني مباشر عن لحظة إنسانية دقيقة عاشها النبي ﷺ، كان مأخوذًا برهافة الشعور واعتبارات الأعراف، فجاء الخطاب الإلهي ليضع الأمور في نصابها، ويعيد تشكيل الرؤية.

يندرج هذا العتاب ضمن أنماط الحجاج البلاغي التقويمي (الإرشادي) الذي يعتمد على الكشف لا التوبيخ، وعلى التَّبيين لا الزجر، إذ يضع بين يدي النبي ﷺ مفارقة دقيقة: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾، فهذا التركيب يحتشد بشحنة دلالية عالية، تؤسس لعتاب هادئ لكنه نافذ، يُقابل فيه فعل الإخفاء الإنساني بفعل الإظهار الإلهي، ويوازن بين خشية الناس وخشية الله، في إطار جدلي حجاجي يسائل دوافع الفعل، وذهب ابن عاشور إلى أن المراد بإخفاء ما الله مبديه هو

ما كان في نفس النبي ﷺ من علمه أن الله زوَّجه بزينب بعد فراقها من زيد، وهذا علمٌ خاصٌ به من طريق الوحي، ولكن النفس البشرية تستشعر الحرج من الناس، فجاء العتاب ليُبصره بأن الخشية لا تكون من الخلق وإنما من الخالق(١)، فجعل من العتاب بيانًا تربويًّا لتصفية النية وتهذيب الباعث.

ويشتغل الخطاب القرآني هنا بحجاج بياني متدرج، يبدأ باستدعاء المشهد بصيغة التذكير ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ وهي صيغة تستبطن العتاب دون إعلانه، وتُمهِّد له بالسياق لا بالمباشرة، ثم ينتقل إلى وصف الطرف المقابل (الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه)، في بنية تركيبية مزدوجة تُمهد للعتاب دون أن تُقصي النعمة أو تَغفل الاعتراف بالفضل، بل تُقيم الأرضية النفسية التي يتم عليها الخطاب، ليظهر العتاب في ذروة المشهد لا في مطلعه(٢)، وبهذا يُمارس القرآن نوعًا من الحجاج التقويمي (الإرشادي) الذي يراعي مراتب النفس وتدرجات الإقناع.

أما الأسلوب فجاء مشحونًا بالتوجيه والإيقاع الوجداني، فالفعل (تُخفي) يقابله (مبديه)، والفعل (تخشى) يقابله (أحق أن تخشاه)، وهذه المقابلات لا تُبرز المعنى فقط، بل تُصعِّد التوتر الداخلي، وتُهيِّئ المتلقي لتقبُّل الحكم الإلهي، ثم إن الجملة الأخيرة: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ جاءت فاصلة، حاسمة، خالية من التقديم والتأخير أو التخفيف، وهو ما يُعطيها بُعدًا تربويًّا حاسمًا في إعادة التوجيه نحو القيمة العليا، وهذا ما أشار إليه ابن العربي بقوله: «تخشى الناس أن يعاتبوك، وعتاب الله أحق أن تخشاه».(٣)

ويُلاحظ أن ختام الآية كان إشارة ضمنية إلى علة هذا التوجيه، فقد قال تعالى: ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾، أي أن الله سبحانه أراد أن يكسر تقاليد الجاهلية التي كانت تُنكر على الرجل الزواج بزوجة

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٦٢/٢١.
(٢) ينظر: المرجع السابق: ٢٥٩/٢١.
(٣) ابن عربي، أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م، ٥٧٦/٣.

متبنَّاه بعد طلاقها، فكان النبي في موقف تمهيدي لتشريع إلهي، اقتضى منه البلاغ الصريح لا المداراة، فجاء العتاب تأسيسًا لتشريع، لا مؤاخذة على تقصير.(١)

بهذا يُوظِّف العتاب الإلهي كحجاج بياني وتربوي مباشر، يعالج موقفًا دقيقًا دون أن يجرح المقام النبوي، فيُقيم الحُجَّة بلغة البيان، ويُربي النفس بلغة العلو، فيتماهى المعنى مع البلاغة، ويغدو البيان القرآني مثالًا أعلى للحجاج التقويمي (الإرشادي) الرفيع.

ويخاطب الله تعالى نبيه الكريم بأسلوب عتابٍ تربوي يتسم بالتدرج الحجاجي والبلاغي، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١-٢]

يُعدُّ العتاب الإلهي في هذه الآيات، نموذجًا بيانيًّا فريدًا يُجسِّد طبيعة الحجاج الإلهي المباشر، بما يحمله من طابع تعليمي وتربوي رفيع موجَّه إلى شخص النبي ﷺ، ضمن خطاب يتسم باللطف والتأديب دون تجريح، ويفتح أفقًا للتأمل في المنهج الإلهي في تهذيب النفوس الرفيعة، يقول السعدي: «وهذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته مارية أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، ناداه بوصف النبوة يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة».(٢)

في هذا الخطاب، يَرِد العتاب بصيغة استفهامية تقريرية: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، وهي صيغة بلاغية تستبطن معنى الإنكار اللطيف، وتُفعِّل بعدًا حجاجيًّا عميقًا يقوم على إثارة الوعي بالمخالفة من خلال السؤال، لا من خلال المباشرة في التوبيخ، وهو ما ينسجم مع مقام النبي ﷺ ومكانته العظمى، فالسؤال لا يهدف إلى طلب الجواب، وإنما يقرِّر وقوع الفعل المستنكر بلطف، ويستدعي التفكر في دوافعه ومآلاته، فـ«الاستفهام مستعمل في

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٢٢/١٦.
(٢) تفسير السعدي، ص٨٧٢.

معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ذلك».(١)

ويتأسس الحجاج هنا على مفارقة بين المصلحة البشرية المؤقتة ومراد التشريع الإلهي الثابت، فالنبي ﷺ حرَّم ما أحلَّ الله له ابتغاءً لمرضاة أزواجه، فجاء الخطاب ليبيّن أن رضا الناس -ولو كانوا الأقربين- لا ينبغي أن يكون على حساب حدود الله، هذا التركيب الحجاجي، الذي ينتقل من الاستفهام إلى تقرير السبب ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾، ثم إلى تأكيد مغفرة الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، يعكس نسقًا تربويًّا متكاملًا، يوازن بين الإشارة إلى الخطأ، والفتح لباب التوبة والتجاوز، وهذا التعقيب فيه «استئناسا للنبي ﷺ من وحشة هذا الملام، أي والله غفور رحيم لك»(٢)، وهو «تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه».(٣)

أما البناء الأسلوبي للآيتين، فيقوم على تدرج بياني يشي بالحكمة الإلهية في تنمية الوعي القيمي، إذ يبدأ بالنداء التعظيمي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، الذي يحمل في طياته إجلال المقام، ويؤسس لمخاطبة تهدف إلى التربية، ثم تأتي الجملة الفعلية: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾، وهي ذات طابع خبري ظاهري، لكنها إنكارية في المقام، تحمل قيمة تربوية في تحميل الإنسان مسؤولية قراراته.

وتعزز الجملة التالية: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ هذا المقصد، حيث تفكك بنية الدافع وتجعله ظاهرًا للمتلقي، وهو أمر نادر في الخطاب العربي، أن تُكشف النوايا بصيغة تقريرية تعليمية، أما ختام الآية الأولى بـ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فهو يمثل الجانب الرحماني من العتاب، الذي يوازن بين التصويب والاحتواء، فلا يبقى للمتلقي إلا أن يتأدب ويتعلم دون أن يشعر بإهانة أو تبكيت.

(١) حصنة بنت حمد الحواس، عتاب الله لنبيه وآثاره التربوية في ضوء آيات القرآن الكريم، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، الإصدار ٢٤- ٧٤، ٢٠١٣م، ص١٢١.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣١٠/٢٨.
(٣) تفسير السعدي: ص٨٧٣.

ثم تأتي الآية التالية: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، لتُتمَّ بنية الحجاج، وتتحول من تقرير الخطأ إلى تعليم سُبل الإصلاح والتجاوز، فـ تحلَّة اليمين هنا تمثل البُعد العملي التطبيقي في الخطاب الحجاجي التقويمي (الإرشادي)، حيث يُقدَّم المخرج الشرعي منه، في سياق تشريعي يحمل في ذاته بعدًا تعليميًّا للأمة.(١)

في سياق العتاب الإلهي الذي يجمع بين الحجاج البلاغي والبياني التقويمي (الإرشادي) المباشر، تأتي الآية الكريمة من سورة آل عمران لتؤكد مبدأ المحاسبة والعدل الإلهي تجاه الرسول ﷺ، فتقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

يأتي العتاب في هذه الآية مشحونًا بالتقريع النافي -ابتداءً- عن شخص النبي أيَّ احتمال للغلّ، ومؤسسًا على ذلك نفيًا قاطعًا ومبدئيًّا يمس مقام النبوة وسمو أخلاقها، «أي إنَّكم تصوَّرتم وظننتم أنَّ النبيَّ يخونكم، والحال أنَّه ليس لنبيٍّ أن يغلَّ، ويخون أحدًا»(٢)، فأسلوب النفي بـ(ما كان) لا يحمل مجرد الإنكار، بل يشير إلى استحالة الفعل ذاته في حق النبي، وكأن السياق يربِّي النفوس المؤمنة على وجوب إحسان الظن بأهل الفضل والقيادة، خاصةً حين يكون المقام مقام النبي ﷺ، الذي لا يُتصوَّر في حقه خيانة أو خديعة؛ لأن ذلك يتنافى مع العصمة والقدوة والعدل الإلهي الذي اصطفاه.

واللافت في هذه الآية أن نفي الغلول مدخل لبناء خطاب حِجاجيٍّ يُقرُّ قواعد الجزاء والعدالة في الدنيا والآخرة، وينفي أي مساواة ظالمة بين من يغدر ومن يخلص، فبعد النفي، ينتقل السياق القرآني إلى تهديد من يفعل الغلول من عامة الناس، لا من النبي، في قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وهنا يبرز الحجاج البلاغي في أعلى تجلياته، حيث يُربط الفعل بمآله الأخروي، ويُدفع المتلقي إلى مراجعة سلوكه بموجب ميزان العدل

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣١٠/٢٨.
(٢) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٧٥٨/٢ -٧٥٩.

الإلهي الذي لا يُحابِي أحدًا.

ومن زاوية الحجاج التقويمي، يتجلى في الآية بيانٌ يعلِّم الناس كيف يتعاملون مع الشائعات أو التهم التي تُلصق بالرموز، خاصة حين تكون تلك الرموز معصومة، فالقرآن لم يكتفِ بمجرد الدفاع عن النبي، بل انتقل إلى تقعيد مبدأ أخلاقي واسع، مفاده أن من يغلل يُحاسب، ومن يُخلص يُوفى، وكل نفس تحصد ما زرعت، وهو خطاب يوجِّه الأمة كلها نحو الوعي بسلوكها، وتحمل تبعات أفعالها، ويغرس فيها القيم العليا من خلال عتاب رفيع يحمل في طياته التربية والبيان، وهذا ما عبَّر عنه الطباطبائي بقوله: «إنَّ هذا السياق معناه تنزيه ساحة النبيِّ عن السوء والفحشاء بطهارته، والمعنى: حاشا أن يغلَّ ويخون النبيُّ ربَّه أو الناس، وهو أيضًا من الخيانة لله، والحال أنَّ الخائن يلقى ربَّه بخيانته، ثم توفَّى نفسه ما كسبت».(١)

هذا النمط من العتاب هو إعادة تشكيل للوعي الجمعي، وتطهير لنفوس المؤمنين من الظن السيِّئ، وبناء لسُلَّم قيمي محكم تُضبط به موازين الأخلاق والسلوك، ويُحمى به مقام الرسالة، ويُحصن به المجتمع من السقوط في مهاوي الإفك أو الخيانة أو تزييف الحقائق.

(١) الميزان في تفسير القرآن، ٤/٥٧.

النتائج:

1-يظهر العتاب الإلهي في صورٍ متعددة (رفيق لطيف، وتقويمي تصحيحي، وبياني مباشر) تعكس درجات المقام والسياق.

2-الخطاب القرآني في العتاب يجمع بين الرفق والصرامة، ويُوظف تقنيات بلاغية وأساليب حجاجية متكاملة لتحقيق إقناع رفيع المستوى في إطار التواصل التقويمي.

3-الحجاج القرآني في آيات العتاب يعكس إدراكًا عميقًا للسياقات النفسية والاجتماعية والوظيفية للنبي ﷺ، مما يُعزز فعالية الخطاب وعمقه الدلالي.

4-تنوعت الأساليب البلاغية في العتاب بين الاستفهام، والنفي، والتوكيد، والإنشاء، والتركيب التركيبي، حيث صُممت بعناية فائقة للحفاظ على كرامة النبي ﷺ وتحقيق أهداف الخطاب.

5-أتاح المنهج الأسلوبي الحجاجي الكشف عن بنية دلالية معقدة تجمع بين الوظيفة التقويمية والبيانية في خطاب العتاب الإلهي، مما يبرز تميز النص القرآني في الأداء والتأثير.

6-الخطاب القرآني في العتاب الإلهي يمثل نموذجًا فريدًا من الحجاج البياني التقويمي الراقي، يجمع بين التوجيه المباشر والرقة في الأسلوب، مع الحفاظ على احترام المقام النبوي وسمو الرسالة.

7-في العتاب الرقيق (اللطيف)، ظهرت تقنيات حِجاجية دقيقة تعتمد التلميح دون التصريح، مما وفَّر للخطاب لطفًا يُجنِّب المواجهة المباشرة، ويهيِّئ النفوس لتلقي التوجيه ضمن إطار عاطفي وإنساني.

8- في العتاب التقويمي، تجلى بوضوح كيف يُزاوج النص بين نبرة الحسم والأسلوب الحواري

الموجه، أما في العتاب البياني المباشر، فإنه يُستخدم البيان الصريح كآلية إظهار للحد الفاصل بين الخصوصية البشرية والوظيفة الرسالية، وفي ذلك، برزت أساليب بلاغية ذات بُعد حِجاجي واضح، كالتكرار التركيبي، والتوكيد، والتعليل.

9- كشفت القراءة التحليلية الأسلوبية لآيات العتاب الإلهي الموجَّه إلى النبي ﷺ عن نسق حِجاجي بالغ الدقة، يمثِّل واحدة من أرقى صور التواصل التقويمي (الإرشادي) في الخطاب القرآني، فقد جاء هذا العتاب موزعًا ضمن ثلاث درجات متدرجة في الخطاب، تراوحت بين الرفق اللغوي والبيان الصريح بحسب طبيعة الموقف وخصوصية السياق ومقتضيات المقام النبوي.

التوصيات

- ضرورة توسيع الدراسات البلاغية التي تتناول الحجاج البلاغي في العتاب الإلهي في القرآن الكريم بوصفه ظاهرة حِجاجية تستند إلى منطق البيان والإقناع، لا إلى العقاب أو التقريع.
- دعوة الباحثين إلى مقارنة أنماط العتاب القرآني بأساليب الحجاج في الخطاب النبوي والخطاب العربي القديم، للكشف عن الامتداد البلاغي والفكري بين النصوص.
- أهمية استثمار نتائج هذا البحث في تعزيز الخطاب الدعوي المعاصر بأسلوبٍ قرآني قائم على اللطف والرفق والتقويم لا على المواجهة والجدل.
- العناية بتدريس مفهوم العتاب التقويمي في مناهج البلاغة القرآنية وعلوم البيان، لما له من أثر في فهم الجمال الحجاجي في النص الإلهي.

قائمة المصادر والمراجع:

1-الأمين، محمد ولد سالم، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، طرابلس، منشورات المركز العربي للدراسات، ٢٠٠٤م.

2-بلعلى، أمنية، الإقناع، المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٨٩، ٢٠٠٣م.

3-الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، مكتبة الخانجي، ٢٠٠٣م.

4-الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، جدة، دار المدني، ط٣، ١٩٩٣م.

5-الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

6-الحباشة، صابر، التداولية والحجاج، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.

7-الحواس، حصنة بنت حمد، عتاب الله لنبيه وآثاره التربوية في ضوء آيات القرآن الكريم، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، الإصدار ٢٤- ٧٤، ٢٠١٣م.

8-خطابي، محمد، لسانيات النص استراتيجية التناص مدخل إلى لسانيات النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

9-الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ١٣٧٦هـ.

10-الزمخشري، الكشاف، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ.

11-السعدي، عبد الرحمن، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

12-السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: حمدي محمدي قابيل، قدم له وراجعه: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، مصر.

13-الشهري، عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب مقاربة تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ٢٠٠٤م.

14-الشيرازي، ناصر الدين أبو سعيد البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٢٠هـ.
15-صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، لبنان، دار الفارابي، ٢٠٠١م.
16-صولة، عبد الله، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، منتدى نور الأزبكية، تونس، مسكيلياني للنشر، ٢٠٠١م.
17-الطبري، ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
18-ابن عاشور، التحرير والتنوير، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٠م.
19-عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
20-ابن عربي، أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧م.
21-العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ٢٠٠٦م.
22-العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة، دار العلم والثقافة.
23-ابن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.
24-العمري، محمد، الحِجاج مفهومه ومجالاته، إربد، دار عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.
25-الغزي، محمود كاظم، أنماط البنى الحجاجية في سور الحواميم، مجلة آداب المستنصرية، العدد ٨٣، ٢٠١٨م.
26-ابن فارس، أبو الحسن أحمد، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٩م.
27-الفراهيدي، العين، تحقيق محمد مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٢م.
28-فضل، صلاح، علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، مصر، دار الشروق، ١٩٩٨م.
29-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ.

30-الكفوي، أيوب، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، بيروت، مؤسسة الرسالة.
31-مجموعة باحثين، نظرة النعيم، جدة، دار الوسيلة للنشر، د. ت.
32-المطرفي، عويد، آيات عتاب المصطفى في ضوء العصمة والاجتهاد، مكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات للنشر، ٢٠٠٥م.
33-مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٥م.
34-المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد حمدان، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٠م.
35-ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، ج٢.
36-يوسف، أحمد، سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات، منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات، جامعة وهران، ٢٠٠٤م.

List of references and sources

1- al-Amīn, Muḥammad Wuld Sālim, ḥijājīyah al-ta'wīl fī al-balāghah al-mu'āṣirah, Ṭarābulus, Manshūrāt al-Markaz al-'Arabī lil-Dirāsāt, 2004m.
2- Bil'alī, Umniyah, al-Iqnā', al-manhaj al-amthal lil-tawāṣul wa-al-ḥiwār namādhij min al-Qur'ān wa-al-ḥadīth, Majallat al-Turāth al-'Arabī, Majallat faṣlīyah taṣdur 'an Ittiḥād al-Kitāb al-'Arab, Dimashq, al-'adad 89, 2003m.
3- al-Jāḥiẓ, al-Bayān wa-al-tabyīn, al-Qāhirah, Maktabat al-Khānjī, 2003m.
4- al-Jurjānī, 'Abd al-Qāhir, Dalā'il al-i'jāz, taḥqīq Maḥmūd Shākir, Jiddah, Dār al-madanī, ṭ3, 1993m.
5- al-Jawharī, al-ṣiḥāḥ Tāj al-lughah wa-ṣiḥāḥ al-'Arabīyah, taḥqīq : Aḥmad 'Abd al-Ghafūr 'Aṭṭār, ṭ4, Bayrūt, Dār al-'Ilm lil-Malāyīn, 1990m.
6- al-Ḥabāshah, Ṣābir, al-Tadāwulīyah wa-al-ḥijāj, Dimashq, Ṣafaḥāt lil-Dirāsāt wa-al-Nashr, 2008m.
7- al-ḥawāss, ḥṣnh bint Ḥamad, 'Attāb Allāh lnbyh wa-āthāruh al-Tarbawīyah fī ḍaw' āyāt al-Qur'ān al-Karīm, Kullīyat al-Dirāsāt al-Islāmīyah wa-al-'Arabīyah lil-Banāt bi-al-Iskandarīyah, al-iṣdār 24-74, 2013m.
8- Khaṭṭābī, Muḥammad, Lisānīyāt al-naṣṣ istirātījīyah al-Tanāṣṣ madkhal ilá Lisānīyāt al-naṣṣ, al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī, al-Dār al-Bayḍā', 1991m.
9- alzzrkshy, al-burhān fī 'ulūm al-Qur'ān, taḥqīq : Muḥammad Abū al-Faḍl Ibrāhīm, Miṣr, Dār Iḥyā' al-Kutub al-'Arabīyah 'Īsá al-Bābī al-Ḥalabī wa-shurakā'ih, 1376h.
10- al-Zamakhsharī, al-Kashshāf, taḥqīq : al-Shaykh 'Ādil Aḥmad 'Abd al-Mawjūd, al-Shaykh 'Alī Muḥammad Mu'awwaḍ, al-Riyāḍ, Maktabat al-'Ubaykān, 1418h
11- al-Sa'dī, 'Abd al-Raḥmān, Taysīr al-Karīm al-Raḥmān fī tafsīr kalām al-Mannān, taḥqīq : 'Abd al-Raḥmān ibn Mu'allā al-Luwayḥiq, Mu'assasat al-Risālah, 1420h.
12- al-Sakkākī, Miftāḥ al-'Ulūm, taḥqīq : Ḥamdī Muḥammadī Qābīl, qaddama lahu wa-rāja'ahu : Majdī Fatḥī al-Sayyid, al-Maktabah al-Tawfīqīyah, Miṣr.
13- al-Shahrī, 'Abd al-Hādī, Istirātījīyāt al-khiṭāb muqārabah tadāwulīyah, Bayrūt, Dār al-Kitāb al-jadīd, 2004m.
14- al-Shīrāzī, Nāṣir al-Dīn Abū Sa'īd al-Bayḍāwī : Anwār al-tanzīl wa-asrār al-ta'wīl, Bayrūt, Dār al-Kutub al-'Ilmīyah 1420h.
15- Ṣūlah, 'Abd Allāh, al-Ḥajjāj fī al-Qur'ān min khilāl khṣāṣh al-uslūbīyah, Lubnān, Dār al-Fārābī, 2001m.
16- Ṣūlah, 'Abd Allāh, fī Naẓarīyat al-Ḥajjāj Dirāsāt wa-taṭbīqāt, Muntadá Nūr al-Azbakīyah, Tūnis, Miskīliyānī lil-Nashr, 2001m.
17- al-Ṭabarī, Ibn Jarīr, Jāmi' al-Bayān fī Ta'wīl al-Qur'ān, taḥqīq : Aḥmad Muḥammad Shākir, Mu'assasat al-Risālah, 1420h.

18- Ibn ‘Āshūr, al-Taḥrīr wa-al-tanwīr, Bayrūt, Mu’assasat al-tārīkh al-‘Arabī, 2000m.
19- Abd al-Raḥmān, Ṭāhā, al-lisān wa-al-mīzān aw al-Takawthur al-‘aqlī, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, al-Dār al-Bayḍā’, 1998m.
20- Ibn ‘Arabī, Aḥkām al-Qur’ān, taḥqīq : ‘Alī Muḥammad al-Bajāwī, Miṣr, Dār Iḥyā’ al-Kutub al-‘Arabīyah, 1957m.
21- al-‘Azzāwī, Abū Bakr, al-lughah wa-al-ḥijāj, al-‘Umdah fī al-ṭab‘, al-Dār al-Bayḍā’, 2006m.
22- al-‘Askarī, Abū Hilāl, al-Furūq al-lughawīyah, taḥqīq : Muḥammad Ibrāhīm Salīm, al-Qāhirah, Dār al-‘Ilm wa-al-Thaqāfah.
23- Ibn ‘Aṭīyah, al-muḥarrir al-Wajīz, taḥqīq : ‘Abd al-Salām ‘Abd al-Shāfī, Bayrūt, Dār al-Kutub al-‘Ilmīyah, 1422h.
24- al-‘Umarī, Muḥammad, alḥijāj mafhūmuhu wa-majālātuh, Irbid, Dār ‘Ālam al-Kutub al-ḥadīth, 2010m.
25- al-Ghazzī, Maḥmūd Kāẓim, Anmāṭ al-Buná al-ḥijājīyah fī suwar alḥwāmym, Majallat ādāb al-Mustanṣirīyah, al-‘adad 83, 2018m.
26- Ibn Fāris, Abū al-Ḥasan Aḥmad, Maqāyīs al-lughah, taḥqīq ‘Abd al-Salām Hārūn, Bayrūt, Dār al-Jīl, 1999m.
27- al-Farāhīdī, al-‘Ayn, taḥqīq Muḥammad Mahdī al-Makhzūmī wa-Ibrāhīm al-Sāmarrā’ī, Dār wa-Maktabat al-Hilāl, 1982m.
28- Faḍl, Ṣalāḥ, ‘ilm al-uslūb : mabādi’ih wa-ijrā’ātuh, Miṣr, Dār al-Shurūq, 1998m.
29- Ibn Kathīr, tafsīr al-Qur’ān al-‘Aẓīm, taḥqīq : Sāmī ibn Muḥammad Salāmah, Ṭ al-thāniyah, Dār Ṭaybah lil-Nashr wa-al-Tawzī‘, 1420h.
30- al-Kaffawī, Ayyūb, al-Kullīyāt Mu‘jam fī al-muṣṭalaḥāt wa-al-furūq al-lughawīyah, taḥqīq : ‘Adnān Darwīsh, Bayrūt, Mu’assasat al-Risālah.
31- majmū‘ah bāḥithīn, naẓrah al-Na‘īm, Jiddah, Dār al-wasīlah lil-Nashr, n.d.
32- al-Miṭrifī, ‘Uwayyid, āyāt ‘Attāb al-Muṣṭafá fī ḍaw’ al-‘Iṣmah wa-al-ijtihād, Makkah al-Mukarramah, Kullīyat al-sharī‘ah wa-al-Dirāsāt lil-Nashr, 2005m.
33- Miftāḥ, Muḥammad, taḥlīl al-khiṭāb al-shi‘rī : istirātījīyah al-Tanāṣṣ, al-Dār al-Bayḍā’, al-Markaz al-Thaqāfī al-‘Arabī, ṭ2, 2005m.
34- al-Munāwī, al-Tawqīf ‘alá muhimmāt al-ta‘ārīf, taḥqīq : ‘Abd al-Ḥamīd Ḥamdān, al-Qāhirah, ‘Ālam al-Kutub, 1990m.
35- Ibn manẓūr Muḥammad ibn Mukarram al-Afrīqī al-Miṣrī : Lisān al-‘Arab, Bayrūt, Dār Ṣādir, n.d., j2.
36- Yūsuf, Aḥmad, sīmyā’īyāt al-tawāṣul wa-fa‘ālīyat al-Ḥiwār, al-mafāhīm wa-al-ālīyāt, Manshūrāt Mukhtabar al-sīmiyā’īyāt wa-taḥlīl al-khiṭābāt, Jāmi‘at Wahrān, 2004m.